10 me Année No. 477
Lundi - 24 - 8 - 1942

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٧٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٣ شعبان سنة ١٣٦١ — الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٩٤٢ » السنة العاشرة

الفهرس

صفحة

أبو سمبل

للأستاذ عباس محمود العقاد

أمسينا فى جو مفعم بالزجر والعيافة ، مغلف بالأحاجى والأسرار ؛ يتكلم المتكلم فإذا هو عائف أو زاجر من حيث يريد ولا يريد ، وإذا هو معرض عما بين يديه وتحت عينيه لينظر إلى عالم الغيب ويستعجل العلم بغده المحجوب ، وبالذى يجرى فى ساعته تلك على مدى الألوف من الأميال

وحق للناظر تلك الليلة أن يعرض عما بين يديه وتحت عينيه ! فماذا كان فى الحق بين يديه وتحت عينيه ؟

منظر واحد يتكرر ثم يتكرر ثم يتكرر فى غير تبديل !

هضاب ورمال ، ثم هضاب ورمال ، ثم هضاب ورمال ...

ثم نيل ينتظمها ويجرى فى خلالها ، ليزيد التشابه بينها ولا يزيدها شيئاً من التبديل أو التنويع

فإذا طالت نظرة العين إلى تلك المتشابهات فهى كالعين المنوّمة التى حدجت بالنظر شيئاً واحداً حتى غاب عنها وغابت عنه ، فاستسلمت لما يوحى إليها من الأنباء ، وما يكشف لها من الأسرار

هنالك علمنا منشأ الزجر والعيافة من قديم . فلا يزجر الزاجر ولا يعيف العائف إلا وبه نقص من حظ العيان ، وحاجة إلى العلم بالفهم والسماع

وكنا فى مثل تلك الحاجة ليلة الزجر والعيافة

فتركنا معركة العلمين ناشبة في بدايتها ونحن لا نسمع كثيراً ولا قليلاً عنها ، وانقضى الليل وطرف من النهار ولا خبر ولا رواية ، ولا إشاعة كتلك الإشاعات التى يخترعها المرجفون ولها صبغة من الخبر والرواية

وما معركة العلمين فى تلك الليلة وفى كل ليلة تأتى بعدها إلى أقاصى التاريخ ؟

هي معركة سماها القدر ولم يسمها الجنشان ولا صحف الأنباء أو مطلقو الأسماء على معارك القتال

هى معركة علمين اثنين تتلخص فيهما جميع الأعلام التى تظل المتقاتلين اليوم فى كل ميدان

علم الحرية وعلم الطغيان !

علم الدفاع وعلم الفتوح والغارات !

وأى العلمين ارتفع فى تلك المعركة ففيه مصير عالين وخافقين ومشرقين ، وفيه ابتداء زمان وانتهاء زمان

وتلك تلك المعركة التى انقطعنا عن أخبارها ليلة وطرفاً من نهار . ثم بلغنا الشلال ، فعلمنا أننا سنقضى فى الباخرة نيفاً وأربعين ساعة ، لا نحن بالعالم متصلون ، ولا العالم بنا متصل ، حتى نستأنف الصلة به عند تخوم السودان

نيف وأربعون ساعة بغير أخبار !

وفى الباخرة مع ذلك طائفة من رجال الصحافة ورجال الأعمال تعودوا عشرين سنة على الأقل ألا تنقضى عليهم أربعون دقيقة بغير خبر جديد ، عن أمور بالغ ما بلغ شأنها فهى من سفساف الحديث إلى جانب الحديث عن العلمين

فمن لم يتعلم الزجر والعيافة فى تلك الليالى المحجبات فما هو متعلم ، وقد تعلمناها فأحسنَّا العلم بهما من درس واحد لم تسبقه دروس ...

* * *

أقبل الليل فألقت الباخرة مراسيها عند الشاطىء إلى الصباح

وخرجنا من المقاصير نتنسم الهواء جادين ونتنسم الأخبار متفكهين ، وذهب كل منا يسأل صاحبه مازحاً : ما أحدث أنباء المساء ؟ فيجيبه : أى مساء ؟ الجمعة أو الخميس أو الأربعاء ! فكل أخبار هذه الأيام سواء

وإنَّا لكذلك إذ انحدر أمامنا مركب سريع موقر بالأبقار السمان ...

فصاح صائح : بشارة خير !

وصاح ثان : نعم ، وأى خير ! فهى أبقار لا تذهب إلى مصر لتموين الأستاذ روميل وأصحابه بطبيعة الحال ! ... ولا تصل إلى القاهرة قبل ثلاثة أيام

وانطلقت الفكاهة والجد أى منطلق فى ذيول هذه المجاوات ؟

فمن قائل : إنها تكلمت وسكت الناس ؛ ومن قائل : إن بقرات يوسف عليه السلام كانت سبعاً وكانت فى المنام ، وهذه سبعون وفوق السبعين نراها في اليقظة رأى العين . فما أحسن البشارة وما أصدق التعبير !

وكان صاحب القدح المعلى فى تلك العيافات والتعبيرات طبيباً لوذعيًّا يسخر من الخرافات

فقلنا : وقد تمت المعجزة بحمد الله ، واصطلح الطب والسحر لحظة فى هذه الليلة بفضل الجهل بالأنباء ... وللجهل فضله الذى لا ينكر فى بعض الأحايين

ثم توالت الأنباء من هذا الطراز : كل مركب منحدر يعبر عن شىء كثير ، بغير سؤال وجواب ، وبغير اعتساف فى التأويل والتعبير

* * *

وأسفرت ليلة الزجر والعيافة عن صباح مشرق كأوضح ما يكون صباح وتشرق شمس فى سماء

ونظرنا ... فماذا رأينا ؟

عجيبة من عجائب التوفيقات : فقد رأينا على الشاطىء قبالتنا هيكل الصباح المشهور بين الهياكل المصرية ، ورأيناه فى اللحظة التى بُنى لها ، وأعدت محاريبه للقائها والامتلاء بشعاعها وضيائها : وهى لحظة الشروق

هذه مطالع هاتور

هذه محاريب أبى سمبل ، وهذه تماثيلها الأربعة الفخام لا تسأم النظر إلى الدنيا فى مجلسها ، ولا تسأم الدنيا من النظر إليها

وهذا هو الوادى الذى قدسوه قبل ثلاثة آلاف سنة ، وجعلوه حرماً لربته هاتور ، ولأرباب كثيرين

فنحى إذن ظلال الهيكل الساحر التى تجملتنا فى جو الزجر

والعيافة منذ ألممنا بواديها ونحن لا ندرى

وهى إذن بقية من كهانات سبقت جميع الكهانات ، وأخذ منها الوادى أو هى قد أخذت من الوادى بنصيب

وكان تمام التوفيق أن نبيت الليل فى جوارها ثم لا نطلع عليها إلا مع طلوع الصباح ، وقد فضت له مغالقها وكشفت له محاريبها ، وعانقته هنيهة عابرة فى لجة من النور

وعبرنا صامتين

وأنصتنا وأطلنا الإنصات ، لأننا نختلس السمع من وراء ثلاثة آلاف عام . وماذا يمنعنا أن ننصت فنسمع ؟ ... ثلاثة آلاف عام لا تنأى بنا عن السمع فى ذلك السكوت

كانوا يقولون فى تلك اللحظة من وراء الجدران الضخام ، ومن وراء جدران أضخم منها وأفخم ، وهى جدران الدهور :

« أنيت أيها البصر الهادى وتمزقت الظلمات ورجعت الأشباح إلى ظلماتها ، واهتزت الأرض بالبشائر ، وافترت الثغور !

« تحيات يا رائد السماء . إنّا لك خاشعون

« وإن الحياة لتبسم بك يا كريم . وإن السماء لتتنفس بك يا واهب الأنفاس ، وإن الزهرة لبك تزهر ، وإن الوردة لبك تعطر ، وإنها لتحيات إليك يا رائد السماء ، وإنّا لك لخاشعون !

« صورت نفسك فما لك مصور ، وكذلك صورت فى ملكك أول نهار ، وخلقت نفس الصباح ، ونفس الإنسان ، وكل ما نماه عالم الإنسان

« حجبت سرك فى النور الأعظم فلا يستشفه بصر مبصر ، وإنا لنحييك يا رائد السماء ، وإنّا لك فى سرك لخاشعون !

« يأيها الوليد القديم لكل نهار جديد ، نستقبلك فنرقص فرحاً فى كرامتك ، ونحنو لك خاشعين ! »

كانوا ينشدون هذا النشيد من وراء الجدران

كانوا ينشدونه بكل لسان ، ويرسلونه إلى كل سمع ، فلا يضيرهم أن يخذلهم لسان واحد فى تلك اللحظة ، وهو اللسان الذى لا يقول بعد الموت ، ولا يخترق حجاب القبور

***

إيه أيتها التماثيل الضخام ! فيم تتحدثين فى تلك الجلسة وقد طالت بك آلاف السنين ؟

كم قلت ؟ وكم لم تقولى ؟! وكم رأيت وكأنك ما رأيت ؟ وكم غمرتك الرمال وأنت لا تحفلين ، وغمرتك الأنوار وأنت لا تحفلين ، وغمرتك الأنظار المستطلعات وأنت لا تحفلين . . .

فيم احتفالك ! وفيم صبرك وانتظارك ؟ وإلام تجلسين ؟ إلام إلام تجلسين ؟!

قلت لأصحابى : هذه جلسة تاريخية ليس لها قرار ، لأنها كلها قرار !

قال قائل منهم : طوبى لها قرارها ! وطوبى لها هذه الجلسة التى اطمأنت إليها : لا حروب ولا أشجان ، ولا أهواء ولا أضغان ، ولا اكتراث للانسان ولا لعالم الإنسان

قلت : على رسلك يا صاح . . . لو استطاعت أن تبتسم لكلامك لامتلأت أفواهها بالابتسام ، ثم جلجلت بالضحك حتى ارتجت لها الهضاب والآكام

أهذه التماثيل الضخام بمعزل عن الحروب والأشجان ، وعن الأهواء والأضغان ، وعن الاكتراث للانسان وعالم الإنسان ؟

هى حديث حرب ، وهى حديث حب ، وهى حديث شجن ، وهى حديث إنسان يتكلم من وراء الزمن إلى إنسان

وخطوة واحدة وراءها تريك رمسيس فى مركبة الحرب يقلب الصفوف على الصفوف ، ويرسل الحتوف وراء الحتوف ، ويفخر بالنجاة وهو مارق من بين ألوف

وخطوة أخرى وراءها تريك الفاتنة « نفرتارى » وهى كالغصن الريان بهواه وهوى عاشقيه

وخطوة أخرى وراءها تريك المطامع والأهواء ، تلعب بالكهان والرؤساء ، وتزدلف إلى السطوة والثراء ، وتنطق بالهجر والمراء

كلا . يا صاح ! هى الحرب فى هذا المكان والحرب فى كل مكان ، وهى الأهواء الآن والأهواء فى كل آن ، وهى الصخور الصلاب تسكت سكوتها فتسمع منها لجب الفرسان ، ونجوى الحسان ، وسعاية الأقران والأعوان

هى حرب ينبئنا بها حجر ، وحرب ينبئنا بها بقر ، وحرب ينبئنا بها كل قائل وأعجم ، ولا يعوزه ترجمان .

عباس محمود العقاد

غرام « سعد زغلول »

للدكتور زكى مبارك

درجتُ فى الأعوام الأخيرة على كتابة مقالة سنوية فى (الرسالة) بمناسبة ذكرى « سعد » ، رعايةً لفضل هذا الرجل فى بعث الحياة الأدبية عند اختلافه مع زملائه الذين شاطروه أعباء الثورة المصرية ، لا رعايةً لمقامه الوطنى « وهو مقام محفوف بالإجلال عند جمهور المصريين والشرقيين » ؛ وإنما أحترس هذا الاحتراس لأن حقدى على « سعد » كان يفوق الوصف ، ومقالاتى فى الهجوم عليه كانت أقوى ما كتبت فى صدر شبابى ، فقد كانت مبادئ الحزب الوطنى غزت قلبى غزواً عنيفاً

أكتب هذا والحزن يعصر قلبى ، فقد انقضى ذلك العهد ، وخمدت النار التى كانت تتأجج فى صدرى ، ولم أعد أقبل الانضمام إلى أى حزب من الأحزاب السياسية

كانت لنا مبادئ نقتتل فى سبيلها اقتتال المجاهدين الصادقين ، وكنا نرحّب من أجلها بالسجن والاعتقال طائعين فرحين ، مبادئُ سليمة تفرّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، فى غير بغى ولا عدوان ، فعلى عهدها الكريم ألف تحية وألف سلام !

ولو لم يكن هذا الحديث متصلاً بذكرى « سعد » الذى عانى ما عانى من بلايا النفى والاعتقال لطويته بلا تردد ، مراعاةً لظروف هذه الأيام ، فلتكن هذه السطور فنًّا من الإحياء لذكراه بين أبناء هذا الجيل

* * *

حديث اليوم عن « غرام سعد زغلول » ، وهو حديثٌ لم يُفِض به إلا لأفراد قلائل ، فما ذلك الحديث ؟

أذكر أولاً أننى لن أجترح إثماً ، ولن أسنّ سنّة سيئة ، حين أتحدث عن غرام رجل عظيم شرّق صيته وغرّب ، فمن المحال أن تخلو قلوب العظماء من صبوات وأهواء

يضاف إلى ذلك أننى سأتحدث يوماً عن « غرام مصطفى كامل » ، الغرام الذى جعله من كبار الخطباء بلغة الفرنسيس ، والذى فرض عليه أن يهتف هتاف الشوق إلى هواه ، وهو يعانى سكرات الموت ...

وأذكر ثانياً أن الدار التى سيجرى اسمها فى الحديث عن « غرام سعد » لن تتألم ولن تتأفف ، لأن سعداً أحبها وأحب أهلها حب الشرفاء ، ثم ارتدّ عنها بحسرة دامية لم يُخفّ كربها إلا بعد سنين تزيد على الخمسين

فكيف كان « سعد » حين استعر فى صدره ذلك الحب ؟

كان طالباً فى الأزهر الشريف ، وكان طلبة الأزهر فى العهود السوالف على جانب كبير من التوقر والاستحياء

ولو شئت لقلت : إنه كان من الصعب على أى فتًى مصرى أن يتخيل كيف تكون المرأة وهى عارية ؛ ولو شئت لقلت أيضاً : إن التصون كان مما يتباهى به الفتيان ، فى ذلك الزمان ، قبل أن تصاب الدنيا بأوضار التمدن الجديد

وكان « سعد » أزهريًّا عفّ القلب ، ولم يكن يعرف من نعيم الحواس غير اللحظات التى يقضيها مع زميله ابراهيم الهلباوى متربّصَيْن على الرصيف بجانب المحكمة المختلطة لمشاهدة الرائحات والغاديات فى عصرية كل خميس

فهل تكون تلك المصريات علّمتْ سعداً معانىَ الغزل الملفوف ؟

هل تكون أوحت إليه أن قلب الفتى قد يتوهج من حين إلى حين ؟

حين قصّ علينا الهلباوى بك — رحمه الله — تلك الحكاية لم يشأ أن يطنب فى الشرح والتعليق ، فقد كان فى المجلس رجال يؤذيهم التبسط فى مثل ذلك الحديث ولم أكن أنا أعرف أنى سأتكلم عن غرام سعد بعد حين أو أحايين

المؤكد أن سعداً قضى شبابه فى تصون وعفاف ، ولولا ذلك لكان من العسير أن يظل فى نشاطه المعروف إلى أن يجاوز السبعين

ومن هنا نعرف كيف اصطلى بنار الوجد فى صباه ، فالشاب المصون يعانى من الغرام لذعات أحر من لذع النار ، لحرمانه من التصعيد الذى يجود به الحب الآثم

فأين كان حب سعد ، حبه السليم من آفات العبث والمجون ؟ أطلّ يوماً من غرفته فرأى فى دار الجوهرى فتاةً كحيلة

العينين مُشرقة الجبين ، ثم غضّ بصره بسرعة حين تذكّر أن ما زاد على النظرة الأولى حرام لا حلال

وما احتياجه إلى نظرة ثانية وقد رُسمت صورة الفتاة على ألفاف قلبه رسماً جعلها أقرب إليه من متن الألفية ، وأوضح من شرح ابن عقيل ؟

هل يُطلّ من النافذة فيراها مرة ثانية ليتأكد من التماثل بين الصورة والأصل ؟

لا بأس ، ولكن الفتاة لم تكن تظهر فى صحن البيت إلا عند الأصيل ، وهو الوقت الذى يعود فيه فتحى افندى من المدرسة ، وهو شقيقه الذى صار فيما بعد فتحى باشا زغلول ، وكان الشيخ سعد يراعى فتحى افندى ، ويتعمد الظهور أمامه بصورة الناسك المتعبد ، ليصرف عنه سوء التلفت إلى النساء ، فقد كان يعرف أن التلاميذ « الأفندية » معرَّضون من هذه الناحية لأخطار تزلزل رواسي الجبال

النظر إلى المرأة حرام ، فما حكم الشرع فى سماع بُغام الملاح ؟

وإنما عرَض له هذا الخاطر الطريف ، لأن مناغاة الفتاة لأترابها كانت تداعب أذنيه من وقت إلى وقت ، وكان شديد العَجب من أن تكون لفتيات الحواضر أنغام لم يسمع مثلها من بنات الريف ، أنغام تصنع بلُبّه ما تصنع الراح بألباب الشاربين

ما حُكم الشرع فى هذه القضية ؟ أيستفتى أشياخه بالأزهر الشريف ؟ أيرجع إلى مطوّلات الفقه بالكتبخانة الخديوية[1] ؟

لا هذا ولا ذاك ، وإنما اكتفى بوضع القطن فى أذنيه عند سماع ذلك البُغام إلى أن يقضى الله فى أمره ما هو قاض

كان يتمنى أن تتاح النظرة الأولى مرة ثانية ، النظرة التى يُرمَى بها الفتى عن غير عمد ، وهى حلال على أرجح الأقوال ، ولكن آباءنا قبل ستين سنة لم يكونوا يسمحون لفتاة بالخروج من البيت حين تصبح وهي فى نضرة الغصن الفينان ، فمن المستحيل أن يظفر الشيخ سعد بنظرة بريئة من تلك الفتاة عند الخروج لدروس الصباح ، أو عند الرجوع لتناول الغداء

وهل كان الفتى الأزهرى الذى يصلى ويصوم يستبيح التطلع إلى بنات الجيران ؟ هيهات ثم هيهات ، فقد حلف على المصحف ليصبرنّ إلى آخر حياته وهو فى طهارة القانت المنيب

ثم يضطرم قلب سعد أعنف الاضطرام ، ويزداد بلاؤه بهواه المكتوم ، من يوم إلى يوم ، والفتاة لا تعرف أن بجوارها فتًى يدعو الله فى أعقاب الصلوات أن يجعلها نصيبه من دنياه ، أو يجعلها على فرض الحرمان نصيبه من الحور العين

ويمضى فيقلب كتب النحو والفقه والتوحيد ليحفظ ما فيها من الأشعار الغزلية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يمضى فينسخ ديوان ابن الفارض ، ليتخذ منه سميراً يؤنس وحشته حين تخفت الأصوات فى دار الجيران

إن سعداً فلاّح وابن فلاّح ، والفلاحون يخمدون نار الصبوة بالزواج ، فما الذى يمنع من أن يسلك مسلك الفلاحين الشرفاء ، فيطلب القرب من أهل تلك المليحة الحوراء ؟

وهنا تثور مشكلة من أقبح المشكلات ، مشكلة اجتماعية يعانيها الحيّ الأزهرى فى جميع الأزمان ، وهى إصرار سكانه من كبار التجار على أن الأزهريين غرباء

لا جدال فى أن الأزهريين هم شرايين الحياة فى ذلك الحى ، وبفضلهم تحيا متاجر وتقوم أسواق ، ولكن هذا الفضل مجحود ، لعلة يحار فى فهمها اللبيب . وقد كانت كلمة « مجاور » كلمة مدح ، لأنها منقولة عن مجاورة الحرم النبوىّ الطاهر ، ثم صارت كلمة هجاء ، بسبب التحامل على الأزهريين ، فاعجبْ لكلمة ينقلها سوء المعاملة من مدلول إلى مدلول ، بلا موجب معقول !

ومع أن الشيخ سعد زغلول كان يعرف أن حيّ الأزهر حيٌّ غادر ختّال ، فقد قهره الهوى على أن يطلب يد ابنة الجوهرى ، ليسلم من وَقْد هواه ، وليعرف كيف يُقبل على دروس الأزهر بعناية والتفات . وهل من المحال أن يفى ذلك الحىّ مرة فى العُمر لشرّفيه من فتيان الريف ؟

تشجّع الشيخ سعد فطلب يد ابنة الجوهرى ، فردّهُ الجوهرى برفق ، وهو يجهل ما ينتظر عمامة سعد من سيطرة أدبية وسياسية على أبناء هذه البلاد

ويرجع سعدٌ حزين القلب ، كاسف البال ، وقد خاب أمله فى هواه إلى آخر الزمان ، ثم نظر فرأى أن الفرار من الحيّ

(١) اسمها اليوم : دار الكتب المصرية

الأزهرى واجبٌ مفروض ، لينجو من غمزات الذين شهدوا ردَّهُ الأليم عن مناسك هواه . وأبناء الريف تؤذيهم ثرثرة السفهاء

لا بُدَّ من ترك الحيّ الأزهرى ، ولكن أين يذهب ؟ وماذا يصنع ؟

إن أباه كان يرجو أن يصير من علماء الأزهر الشريف ، ومن أئمة الدين الحنيف ، فكيف يخلف ظن أبيه بلا تهيُّب ولا استحياء ؟

ثم بدا له أن الكرامة الذاتية من مقاصد الكرامة الدينية ، فخلع العمامة والجبة والقفطان ، ولبس الحلة الأفرنجية واحترف المحاماة ، فأصبح وهو الأفوكاتو سعد أفندى زغلول ، بشارع عابدين ، وأمسى مكتبه سامراً يلتقى فيه كرام الرجال

ولكن لوحة صغيرة كانت تثير جواه حين يدخل ذلك المكتب ، لوحة رُقِشَ فى صدرها الأبيض هذا البيت :

وإذا دُعيتُ إلى تناسى عهدكم ألفيت أحشائى بذاك شِحاحا

ولم يكن بدٌّ للقلب المجروح من دواء ، وهل يُداوَى القلب المفطور بغير العمل الموصول ؟

مرَّ عامٌ وعامٌ وأعوام ، وسعدٌ يجاهد فى سبيل المجد ليعرف من ردُّوه جاهلين أنهم أضاعوا « جوهرة » لن ترى « الجوهرىُّ » مثلها ولو أضاع العمر فى البحث والتنقيب

ثم استجاب الله لدعوات الوالدَين الصالحَين ، فاقترن سعدٌ بفتاة كريمة العمّ والخال هى بنت مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء فى ذلك العهد ، وهى اليوم صفية زغلول أم المصريين ، أسبغ الله عليها نعمة الصحة والعافية ، إنه قريبٌ مجيب

وجاءت أيام فى إثر أيام ، وتنقل سعدٌ من حال إلى أحوال ، إلى أن نفاه الإنجليز فى سنة ١٩١٩ بسبب قضية الاستقلال

ثم سمح الإنجليز بأن يسافر من مالطة إلى باريس ليقنع « مؤتمر السلام » بعدالة القضية المصرية إن استطاع

وعجز سعدٌ وأصحابه عن الوصول إلى قصر فرساى ، فرجع إلى مصر وهو آسف غضبان

فماذا رأى بعد الرجوع ؟

أقيمت له حفلتان فى الحيّ الأزهرى ، أولاهما فى دار البكرى ، وقد فرح بها فرحاً عظيما ، فقد كان يظن أن خذلانه فى الوصول إلى « مؤتمر السلام » قد يصرف عنه قلوب المصريين وفى تلك الحفلة هُتف عند دخول عدلى باشا بعبارة « تحيا وزارة الثقة » ، وهُتف لسعد باشا بعبارة يحيا « الشيخ سعد »

أما الحفلة الثانية فكانت ... أين كانت ؟

كانت فى دار الجوهرى ، الدار التى ردّت سعداً خائباً قبل أعوام تزيد على الخمسين

وجرى الهتاف لسعد : « يحيا الشيخ سعد »

والتفت سعد باشا ذات اليمين وذات الشمال ، فرأى أنه فى أمان من ثرثرة السفهاء ، وأن الشيخ القديم لن يغلب الباشا الجديد ، وأن من حق الأزهريين أن يفتخروا به مشكورين

ثم التفت الرجل مرة ثانية ذات اليمين وذات الشمال ، وسمح لعينيه بدمعتين مُحرقتين ، هما التحية لهواه الذى ذهب إلى غير معاد

هذا سعد باشا خليفة الشيخ سعد ، ولكن أين بنت الجوهرى ؟ وأين مكانها فى هذا الوجود ؟ أغلب الظن أنها ماتت وإلا فكيف صبرت عن خلع العذار لتقبّل الحبيب الذى انتصر على مكايد الزمان ؟

وأقام سعدٌ فى « بيت الأمة » يتلقى تهنئة الوفود بعودته سالماً من باريس ، وكان يمدُّ يده فينزع اللثام عن كل امرأة تعتصم بالحجاب ، وكانت حجته أنه يؤيد رأى صديقه الحميم قاسم أمين

ولعله كان يرجو أن يطلُع عليه القمر الجوهرى ، لو كان للقمر الآفل طلوع

لقد حدثتنى النفس بزيارة دار الجوهرى قبل أن أسطر هذا الحديث ، ولكنى خفت أن أضاف إلى المجانين

كان لى فيك هوًى ، يا دار الهوى ، فأين غرام سعد وأين غرامى ؟

إن اعتدل الميزان فسنكتب على بابك العالى سطراً يقول :

« هنا تهاوتْ أحلام وقلوب »

وأين دار الجوهرى ؟ لا تسألوها عن مكانها ولا تسألونى ، فقد ناب عنى وعنها أبو تمام حين قال :

لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ خفَّ الهوى وتقضَّتِ الأوطارُ

وأنت ، يا سعد باشا ، ما رأيك فى هذا الحديث ؟ ألا ترى أنه من أشرف ما يتصل بتاريخك الجليل

زكى مبارك

من معهد الاسكندرية
إلى جامعة فاروق الأول

للأستاذ محمد محمد المــدني

أيتها الجامعة الناشئة :

سلام الله ورحمته وبركاته عليك ، وهنيئاً لك هذا البدء السعيد لحياة أرجو أن تكون طويلة مباركة حافلة بالعمل والنشاط والإنتاج إن شاء الله !

أتدرين ممن تَلَقَّيْنَ هذا الكتاب ؟ إنه من أخ لك لم تلده أمك الشابة الحسناء ، المشرفة على ضفاف النيل بالجيزة الفيحاء ، ولكن ولده عمك أو جدك « الأزهر » ! ذلك الشيخ العجوز الرابض تحت سفح المقطم منذ ألف عام ... أريد أن أهنئك من قلب مخلص صادق لم يداخله الحسد ، ولم يكدره التعصب ، بما تلقينه من عناية بك ، واهتمام بأمرك ... ثم أشكو إليك ما أتجرّع أنا من غصص الضعف ، وما أذوق من ذل الغربة وويل الشتات[١] !

أنت الآن — أيتها الأخت — في فترة من الزمان تغبطين عليها : لم تبتدئي بعدُ عامك الدراسي الأول ، وأرى الدنيا عليك مقبلة ، والأيام عنك راضية ، والدولة إليك دائلة !

أنت كالعروس المدللة الأثيرة عند أهلها : يُعدون لها ، ويتطلعون إلى يوم جلوتها ، ولا يدخرون وسعاً في سبيل إرضائها ، وتهيئة الحياة السعيدة المترفة الناعمة لها ... وأهلك أغنياء كرماء قد عرفوا الحياة وأدركوا أسرارها ، ومُرِّنوا على السير فيها بخطوات ثابتة جريئة متوالية ، حتى احتلوا المكان الأول ، ونالوا الحظ الأوفر ، وتركوا الخاملين المتخلفين من ورائهم ، يكادون يتميزون غيظاً ويموتون غمًّا !

هذه وزارة المعارف كثيرة الحركة دائبة النشاط : قد حشدت قواها ، وعبأت رجالها : تجتمع لجانها ، وتنعقد مجالسها ، وتكتب تقاريرها ، وتؤلف فيها الهيئات الفنية وغير الفنية ، ويسهر وزيرها ، ويدأب في السعي مستشارها ، وتشتغل الصحف والمجلات ودار الإذاعة بأمرها ... وكل ذلك من أجلك أنت — أيتها الأخت — السعيدة ! ومن قبل شغل المجلسان في دار الندوة بهذا الأمر : تقبلاه بقبول حسن ، وأقراه في مثل لمح البصر ، وأوسعا له في البذل والعطاء ، ولم يضنا عليه بالحرّ من المال ، والعالي من المناصب ، والرفيع من الدرجات ... فاسعدي — يا أختُ — بهذا العطف ، واهنئي بهذه الرعاية ، واستمتعي بمجد آلك ، واستطيلي فخراً بأسمائهم ، واستظلي مما عقدوه عليك بلواء من الأمن والطمأنينة والرضا ، واسلكي سبل العلم ، وفجاج البحث ، ذُلُلاً لا أشواك فيها ، ولا عقاب تعترض من دونها !

سيري يا أختاه بجنان ثابت ونفس مطمئنة وصدر لم تفسده الوساوس ، ولم تحم حوله الشكوك ، فقد وفتك الدولة حقك ، وكفتك ما يهمك ، وجعلتك في يمنى يديها حين جعلت غيرك في يسارها ومن وراء ظهرها !

معاذ الله — أيتها الأخت الناشئة — أن أتطاول إلى مثل مقامك ، أو أمنى النفس بمثل منزلتك ، فإنما أنا معهد ثانوي صغير لا يزيد على هذه المدارس الكثيرة التي تعمل في خدمتك ، والتي ستمدك كما مدّت أمك الرءوم من قبل بالبنين والبنات ؛ ولست قريباً لك ولا نداً لخطابك ، ولكني أشاركك فقط في معنى واحد ، به أكتب إليك وبه أجتريء عليك : أنا معهد الإسكندرية وأنت جامعة الإسكندرية ، ولقد كنت مثلك يوم نشأتُ منذ ثلاثين عاماً : كنت معهداً من المعاهد العليا عنيت به الدولة يومئذ كما تعنى بك الآن ، واحتفلت به الأمة كما تحتفل بك الآن ، وأسندت إدارته إلى رجل عبقري حازم لم تزل آراؤه وإصلاحاته وهمته ونشاطه مسك الأحاديث وعطر المجالس ، هو المغفور له الشيخ محمد شاكر ، وقال الناس عني كلاماً كثيراً ، قالوا : هـذا معهد الإسكندرية عاصمة مصر الثانية ، هذا هو « أزهر » الدولة المحمدية العلوية سينافس أزهر الدولة

(١) معهد الأسكندرية مقيم بدمنهور بسبب الغارات على الأسكندرية ، وقد أدمج القسم الثانوي منه في معهد طنطا .

الفاطمية ، وقد حققت بى الأيام بعض هذا الظن ، فكنت نموذجاً فى أساتذتى ، وكنت نموذجا فى طلابى ، وكنت نموذجا فى دراساتى ونظامى ، وخرجت رجالاً أئمة يكادون يستأثرون بالفضل فى كل ناحية من نواحى الأزهر الحاضر : فى العلم ، فى الخلق ، فى الإدارة ، فى الحزم ، فى الشجاعة ، ولكن الزمان صدمنى مرتين : فأما إحداهما فيوم بدا لرجال الأزهر أن يجعلونى معهداً كمعاهد الأقاليم فأصبحت معهداً ثانويًّا كمعاهد طنطا وشبين وقنا ، أعد أبنائى ، وأجدّ فى تعليمهم وتثقيفهم وتهذيبهم وتقويم أخلاقهم ؛ حتى إذا سويتهم فتيان علم وعمل وخلق كريم دفعت بهم إلى الأزهر فغرقوا فى لجته وضلوا فى تيهه . والأزهر كما ينبئ عنه التاريخ قوة خارقة غلابة تحيل الأشياء ولا تحيلها الأشياء : كم من رجال تأبَّوْا عليه ثم خضعوا له من حيث لا يشعرون ، وأرادوا له صيداً فكانوا هم المصيدين ! وكم من علوم لم تهضمه ولكنه هضمها ، ورامت منه فأخضعها وأذلها ! وكم من أخلاق فيه تبدلت وملكات ثابتة تأرجحت ! فاذا عليهم لو تركونى كما أنشأونى معهداً عالياً نموذجيًّا ولم تمتد أيديهم إلىَّ ، إذن لكنت اليوم جديراً أن أكون قريناً لك بل منافساً شريفاً يحاول أن يسبقك فى ميادين العلم والبحث والإنتاج !

وأما صدمتى الأخرى فقد أصابتنى قريباً ، وكانت صدمة عنيفة زلزلت مكاني ، وقوضت أركانى ، وشطرتنى شطرين رمت بأحدهما إلى عاصمة الغربية فزحمت به معهد طنطا ، واحتفظت بأيسر الشطرين فى دمنهور فأقامته فى « كُتّاب » لجمعية تحفيظ القرآن ثم قالوا عن هذا « الكُتّاب » وأنا أكاد أذوب خجلاً : هذا معهد الأسكندرية !

لقد أنزلوك على الرحب والسعة إحدى دورهم الفسيحة الأرجاء العالية البناء ، ولن تمضى عليك بضع سنوات حتى تكون لك مدينة جامعية فى رمل الأسكندرية تشرق على بحر الروم كما تشرق مدينة الجامعة الأولى على نهر النيل ، أما أنا فقد قضيت حياتى فى مكانين متباعدين فى مدينة الأسكندرية شمالاً وغرباً : أحدهما زقاق غير نافذ من أزقة السيالة تكتنف البيوت فيه دارى ، ويعلو للباعة المتجولين فى كل صباح ضجيج من حولى ؛ والآخر دار بنوها ، وكأنما كان مهندسها ينظر فى ضمير الغيب إلى ما حدث الآن[1] فبناها على نظام ثكنات الجيوش . نعم بنوها ، ولكن فى أى مكان ؟ فى « القبارى » موطن المصانع ومستودعات البترول و « مغالق » الخشب ، ومخازن السكك الحديدية وطريق الأسكندرية كلها إلى « السلخانة » ومدابغ الجلود !

« وفكر » الأستاذ الأكبر المراغى فى أن يبنى لى داراً تليق بمكانتى ، فأمر رجاله أن يرودوا الأسكندرية وضواحيها مكاناً مكاناً فرادوها ، وقيل للناس إنهم قد انتخبوا مكاناً فيها ، ثم انتهى الأمر بالمشروع إلى هذا الحد فَكُتبتْ فيه تقريرات أضيف إلى سجل التقريرات عن سائر المشروعات !

وليتنى بقيت فى الأسكندرية حيث كنت ، ولكنهم حفظهم الله قد خافوا الغارات ، وقذائف الطيارات ، ففروا بى من قضاء الله إلى قضاء الله . فهذه هى الصدمة الأخيرة التى حدثتك يا أخت عنها ، فإذا بدا لك أن تسأليني : كيف جاز لمعهد أزهرى أن يفر من الأسكندرية قبل أن تفر مدارسها الابتدائية بل مدارسها الإلزامية ورياض أطفالها ، فإنى أجيبك على البداهة بأن لنا معاشر الأزهريين فلسفة خاصة فى القضاء والقدر والصبر على النوازل والثبات للشدائد ؛ فلسفة تقضى علينا أن ننصح الناس بالرضا عن ذلك كله ، واحتمال ذلك كله وننسى أنفسنا ، وأن نبالغ فى نهى الناس عن الجزع والفزع ثم نخالفهم إلى ما ننهاهم عنه ! وقد يكون فى الأمر سر آخر لا أعلمه ولا أعتقد أنك حريصة على أن تعلميه ، وربما علمه فضيلة شيخى الجليل الناشط الأستاذ الشيخ أبى العيون . وبهذه المناسبة أذكر لك أن هذا الشيخ الناشط لا يباشر عمله فى إدارتى الآن منذ عام أو يزيد ، لأن الأزهر رأى أن ينتفع بنشاطه فى منصب من مناصب التفتيش « فى إدارته العامة » فيا لله لمعهد قسمه الثانوى فى طنطا وقسمه الابتدائى فى دمنهور ، وشيخه ومدير إدارته فى القاهرة بين المفتشين !

أيتها الأخت السعيدة : هنيئاً لك ، وعزاء لى .

أخوك

معهد الأسكندرية

« بطرف » جمعية المحافظة على القرآن الكريم بدمنهور

(طبق الأصل)

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

---

(١) تحتل القوات العسكرية الآن بناء المعهد بالقبارى .

من وثبات العبقرية

نظام الضرائب في الاسلام

وهل روعي فيه الوضوح والملاءمة

للأستاذ على حسين الوردى

لقد وضع الاقتصادى الأشهر آدم سميث ، كما سبق ذكره ، أربع قواعد يجب أن تتوفر فى الضريبة الصالحة : هى العدل والاقتصاد والوضوح والملاءمة[1] .

أما وقد انتهينا فى مقالاتنا السابقة من بحث قاعدتى العدل والاقتصاد فى الضريبة ، فقد بقى علينا أن نأتى إلى موضوع الوضوح والملاءمة فيها .

قاعدة الوضوح

يريد العلماء بالوضوح فى الضريبة أن تكون الضريبة معينة فى مقدارها وزمان جبايتها ومكانها ، بحيث يكون الناس على علم من ذلك كله فلا يبقى إذن مجال للزيادة والنقصان والتقديم والتأخير ، مما يؤدى إلى إساءة الاستعمال والاختلاس والإرهاق ، إذ يغتنم الجباة فرصة جهل الناس فيستخلصون منهم ما لاحق لهم به

والحكومات الحديثة تحرص على اتباع هذه القاعدة كل الحرص ، فنجدها تنشر على الناس الميزانية العامة فى رأس كل عام ، وتحاول بكل وسيلة أن يطلع المكلفون على ما فرض عليهم من ضرائب لكى يعدُّوا أنفسهم وأعمالهم وأموالهم فى سبيل ذلك ، ولكى يعلموا بشىء من اليقين ما تزيد به الضريبة على كلفة الإنتاج وما ينبنى لهم من تقرير الأسعار وتهيئة العرض حسب الطلب المقبل .

ولقد قيل بهذه المناسبة إن القديم الخبيث من الضرائب خير من الطيب الجديد[2] . ويريدون بهذا القول : أن الضريبة القديمة ، مهما كانت سيئة ، فقد عرفها الناس وتعودوا عليها منذ زمن طويل ، ثم اطمأن المنتجون إلى آثارها فهم ينتجون بعد أن يضعوا مقدارها فى حسابهم واضحاً معيناً . وإذا كان السعر من جرائها مرتفعاً علم المنتجون بما يستطيعون بها من بيع وما يأتيهم بعد ذلك من أرباح . وعلى هذا يكون ميزان العرض والطلب فى الميدان الاقتصادى هادئاً ، ومحتملاته المقبلة على شىء من الوضوح

أما إذا وضعت الحكومة ضريبة جديدة ، اختل هذا الميزان طبعاً وأخذ يترجح يمنة ويسرة ، لأن المنتجين تفاجئهم الضريبة فيضطرون إلى تحملها فى أرباحهم أو إلى زيادة أسعارهم بها ، وفى كلا الحالين يطرأ الارتباك على سوق البضاعة : لقلة فى العرض ناتج عن ضآلة الأرباح ، أو لقلة فى الطلب ناتج عن ارتفاع الأسعار

هـذا هو ما دعا الحكومات الرشيدة إلى الإبطاء فى تبديل نظام الضرائب الجارى فى بلادها وقصر التعديلات فيه على أقل حد ممكن ، لأنها تعلم خطر التغييرات المتعاقبة على النظام الاقتصادى المستقر على حالة راهنة[1]

وإذا نظرنا إلى الإسلام نجد ضرائبه على قسط كبير من الوضوح والاستقرار ، ولعله قد فاق كل نظام فى هذا المضمار ، إذ أن رسول الله قد وضع نظاماً ثابتاً للصدقات لا يتغير على مدى الأيام ، وها هو ذا جزءاً من الفقه يتدارسه المسلمون جيلاً بعد جيل ، وعند ما حدثت فى الإسلام أوضاع جديدة احتاجت إلى أنواع أخرى من الضرائب كما حدث فى عهد عمر ، وضع الفقهاء كما بينا سابقاً ضرائب جديدة أثرت من بعدهم واتبعت اتباعاً طويلاً

وكأن الإسلام قد شعر بما يشعر به علماء اليوم من أن الضريبة القديمة ليست ضريبة An old tax is no tax[2] . فشرع للناس شرعة الضرائب الثابتة ، وهى ما كانت الأمم القديمة لا تعرفه ولا تهتم به

فلا ريب فى أن الملك فى الزمن القديم كان يبغت الناس بين كل آن وآخر بضريبة جديدة ، تبعاً لما كان يشعر به من حاجة إلى مال ، أو رغبة فى ادخار

(١) Justice, Economy, Certaivety, Convenience.

(٢) موجز فى علم المالية ، فارس الخورى (ص : ٢٠٤) (مطبعة الحكومة بدمشق ١٩٢٤)

(١) أصول علم المالية العامة ، الدكتور زكى عبد المتعال سنة ٩٤١ (الطبعة الأولى ص ٢٠٠)

(٢) Public Finance, Bastable (الطبعة الثالثة ، لندن ، ١٩٢٧ ، ص ٤١٩

وبهذه المناسبة نود أن نطلع القارئ على طريقة فى الجباية كانت مستعملة فى الزمن القديم ، ولا تزال بعض الدول اليوم تعتمد عليها أحياناً ، تلك هى طريقة التوزيع Apportional ، ويلاحظ فيها أن الحكومة لا تعيّن نسبة الضريبة فى قانون ثابت ، حيث تؤخذ من الفرد كل سنة كما تقتضى قاعدة الوضوح إنما تعين الحكومة مقدار حاجتها من المال فى رأس السنة المالية ثم تقسم هذا المقدار على الولايات لتؤدى كل منها حصتها المتناسبة من الضريبة العامة . وحاكم الولاية بدوره يفرض على أفراد ولايته ما يشاء من وزيعة ، إذ هو مسؤول عن وفاء ما تطلب منه الحكومة المركزية بكل وسيلة

حقًّا ، إن هذه الطريقة سهلة الإدارة واضحة المعالم بالنسبة للحكومة ، لكن فيها ظلماً وفيها غموضاً بالنسبة لدافع الضريبة ، ذلك لأنه لا يعرف مقدار الوزيعة التى تؤخذ منه كل سنة ، فهى تختلف عاماً بعد عام

فإذا كانت حاجة الحكومة كبيرة فى إحدى السنين ، أرهق الفرد فى دفع حصته من ذلك من غير اهتمام كبير فى ما ينتج الفرد أو يستطيع ؛ ولذلك يبقى حائراً فى كل حين ، لا يدرى مقدار الوزيعة التى ستفرض عليه ، ولا يقدر إذن أن يتضح أثرها الاقتصادى فى تكاليفه المقبلة وأسعاره

أما الإسلام ، فلا نعلم أنه لجأ مرة إلى مثل هذه الطريقة ، وكل الذى نعرفه فى هذا الموضوع ، هو أنه كان يوصى عمال خراجه وصدقاته دائماً بالرفق والعدل من غير اكتراث بالمقدار الذى يستحصلونه بعد ذلك . وقد قال أحد العمال لعلى بن طالب عندما أوصاه بالرفق : يا أمير المؤمنين ، إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك (يعنى من غير جباية) ؛ فأجابه على : وإن رجعت كما ذهبت ... ويحك ! إنّا أمرنا أن نأخذ منهم العفو (يعنى الفضل[1])

***

وقاعدة الوضوح هذه تكون واجبة أشد الوجوب عندما تجبى الضريبة بطريق الالتزام ، لأن الملتزم الذى يتقبل جباية الضريبة على مقدار معين من المال ، يرغب دائماً فى أن يستفيد من غموض الضريبة ، أو جهل الناس بها ، وهو قد يتوخى تعمية الأمر ليتسع له مجال ابتزاز المال منهم تحت ستار من القانون !

وفى الحقيقة أن الحكومة مهما حاولت توضيح الضريبة للناس ، فلا بد أن يبقى ثمت كثير من البلهاء الجاهلين

وهذه السيئة هى التى جعلت الحكومات الحديثة تتجنب — جهد الإمكان — منح الجباية إلى الملتزمين

هذا ، والالتزام — فضلاً عن ذلك — مخالف لقاعدة الاقتصاد فى الضريبة :

فلقد قلنا فيما مضى : إن الفرق بين ما يخرج من جيوب الدافعين ، وما يدخل إلى خزينة الدولة ، يجب أن يكون أقل ما يمكن ، لكى يتوفر فى الضريبة عنصر الاقتصاد

وفى جباية الضريبة عن طريق الالتزام ، يحاول الملتزم أن يجبى لنفسه أكبر مقدار ممكن ، لكى يوفر لجيبه الفرق العظيم بين ما يؤدى للحكومة وما يجبى من الناس ، ونجده لذلك يعذب الناس باسم الحكومة ويرهقهم إرهاقاً

وقد تضحك يا سيدى القارئ إذا علمت بما صنع عبد الله ابن العباس برجل جاء إليه فقال : أتقبّل منك الأُبُلّة بمائة ألف . فضربه ابن عباس مائة وصلبه حياً[1]

من هذا نعلم أن الإسلام كان يبغض الالتزام كل البغض ، ويحرمه كل التحريم . وإليك ما قال أبو يوسف فى هذا الشأن يوصى به الخليفة هرون :

« ورأيت ألا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد فإن المتقبل (الملتزم) إذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم ، وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه . وفى ذلك وأمثاله خراب

(١) الخراج ، يحيى ابن آدم القرشى (المطبعة السلفية ١٣٤٧ ص ٧٥)

(١) الأموال ، القاسم بن سلام (ص ٧٠) تصحيح محمد حامد الفقى ١٣٥٣ .

البلاد وهلاك الرعية . والتقبل لا يبالى بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته . ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبل به فضلاً كثيراً ، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية ، وضرب لهم شديد ، وإقامته لهم في الشمس ، وتعليق الحجارة في الأعناق ، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج بما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه . إنما أمر الله أن يؤخذ منهم العفو ، وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم ...»(1)

قاعدة الملاءمة

ويسميها بعض المؤلفين بقاعدة الرفق والسهولة . يقول فيها آدم سميث : تجب جباية الضريبة في الزمان والمكان وبالطرق الأكثر ملاءمة للمكلف(2)

وهذه القاعدة لم يكن معنياً بها كثيراً لدى الأمم القديمة ، ذلك لأن علاقة المصلحة بين الحكومة والفرد لم تكن متبادلة

أما الحكومة الحديثة فقد بدأت تشعر بأهميتها في حياة الأمة ، وبأثرها في الإنتاج العام . واليوم ينصح علماء المالية بأن الجباة يجب أن يذهبوا بأنفسهم إلى حيث يجبون الضريبة في الأماكن التي يختارها المكلف ، وليس بجائز أن يتخذوا لهم المكان المطمئن ويأمرون المكلف بجلب الأموال إليهم وهم ناعمون . . .

والإسلام قد نظر في الأمر نفس هذه النظرة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا جَلَب ولا جَنَب ولا شغار في الإسلام ، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا على مياههم وبأفنيتهم(3) »

يقول الإمام القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية في شرح ذلك : « . . . لا ينبغى للمصدّق (الجابى) أن يقيم بموضع ثم يرسل إلى أهل المياه ليجلبوا إليه مواشيهم فيصدّقها ، ولكن ليأتيهم على مياههم حتى يصدقها هناك ، وهو تأويل قوله على مياههم وبأفنيتهم(1) »

أما وقت الجباية فيجب أن يكون في الحين الذى يستسهل فيه المكلف دفع الضريبة أو عند ما تتوفر لديه النقود بعد حصاد زرعه أو بيع بضاعته

سأل عمر واليه على حمص سعيد بن عامر بن حذيم : مالك تبطئ بالخراج ؟ فأجابه أمرتنا ألا نزيد الفلاحين على أربعة دنانير فلسنا نزيدهم على ذلك ولكنا نؤخرهم إلى غلاتهم . فقال عمر : لا عزلتك ما حييت(2)

قال الإمام أبو عبيد القاسم : « لم يأت عن رسول الله أنه وقّت للزكاة يوماً من الزمان معلوماً ، إنما أوجبها في كل عام مرة . وذلك أن الناس تختلف عليهم استفادة المال ، فيفيد الرجل نصاب المال في هذا الشهر ، ويملكه الآخر في الشهر الثانى ، ويكون للثالث في الشهر الذى بعدهما . ثم كذلك شهور السنة كلها . وإنما تجب على كل واحد منهم الزكاة في مثل الشهر الذى استفاده فيه من قابل . فاختلفت أوقاتهم في محل الزكاة عليهم لاختلاف أهل الملك . فكيف يجوز أن يكون للزكاة يوم معلوم يشترك فيه الناس ... »(3)

حقاً لقد كان الإسلام رفيقاً بدافعى الضرائب كل الرفق موصياً بهم أجل الإيصاء . أنظر إلى على بن أبى طالب يوصى عامله على مصر في أهل الخراج : « ... فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالّة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش ، خفّفت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم . ولا يثقلنّ عليك شيء خفّفت به المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به في عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم ، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم ، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم(4) ... »

(1) الخراج ، الامام أبو يوسف (المطبعة السلفية ١٣٤٩ ، ص ١٢١)
(2) Wealth of Nations, Smith (الكتاب الخامس ، الفصل الثانى ، البحث الثانى)
(3) الأموال لأبى عبيد القاسم (ص ٤٠٤)

(1) الأموال لأبى عبيد القاسم (ص ٤٠٥)
(2) الأموال لأبى عبيد القاسم (ص ٤٤)
(3) الأموال لأبى عبيد القاسم (ص ٥٩١)
(4) نهج البلاغة ، شرح الامام محمد عبده (مطبعة الاستقامة ص ١٠٧)

تلك تعاليم سامية بلا ريب وهى مطابقة لما تملى قاعدة الرفق والملاءمة ولما يُلحّ على اتباعه علم المالية العامة إلحاحاً .

ولا مراء فى أن الإسلام قد شرع للناس شريعة الضرائب الصالحة فى الزمن الذى انغمر فيه العالم فى دياجير الظلم ، وانحطت فيه الروابط الاجتماعية والاقتصادية انحطاطاً عظيماً .

وكأن الإسلام قد جاء بتجربة اقتصادية كبرى برهنت للناس بالبرهان الحسى على أن العدل أساس الملك حقاً ، وأن الرفق أولى بإنماء الجباية من التعسف والتكالب .

فقد يأخذنا العجب حين نرى الجباية قد بلغت — على عهد الإسلام — مبلغاً لم يحلم به القياصرة والأكاسرة ، وهم الذين كانوا يستنزفون أموال الناس بالباطل ، وهم على زعمهم غانمون .

بلغت الجباية على عهد المأمون — حسب قائمة ابن خلدون التى أوردها فى تاريخه — ما يناهز الأربعمائة مليون درهم عدا الحيوانات والسلع والعروض ، وهى أموال طائلة لا يجوز مقارنتها بعملة اليوم لأن الدرهم كان حينذاك ذا قوة شرائية كبرى[1] .

ولا يخفى أن هذا المبلغ كان حصة الخزينة المركزية الخاصة بالخليفة ، حيث تأتى إليه خالصة بعد الإنفاق على إدارة الحكومات المحلية وإعانة الفقراء فيها . هى حصة الخليفة وحده يتصرف بها كما يرى فى تدبير الشؤون العامة . فياليت شعرى كم هو مجموع الجباية العامة إذن قبل الإنفاق !

هذا مع العلم أن أقصى ما وصل إليه مجموع الجباية العامة عند الرومان فى عنفوان مجدهم لم يتجاوز الأربعمائة مليون درهم[2] وهم الذين كانوا فى دقة القانون وبراعة الإدارة مشهورين .

أليس فى هذا حجة بالغة على أن العدل أساس الملك ، وأن الرفق أولى من التعسف فى إنماء الجباية .

كاظمية — عراق **على حسين الوردى**

---

(١) موجز فى علم المالية ، فارس الخورى (ص : ٣٣)

(٢) » » » » » » » » »

المساهمة والشركة في مصر

بمناسبة ذكرى وفاة « طلعت حرب »

للأستاذ عبد الله حسين

فى يوم الخميس ١٣ أغسطس احتُفل بالذكرى الأولى لوفاة الزعيم الاقتصادى الكبير المغفور له محمد طلعت حرب باشا ، المؤسس الأول لبنك مصر وشركاته المساهمة المعروفة . ولقد كان مما يتفق وطبائع الأمور ، أن يعرض المحتفلون بهذه الذكرى ، والمعزون والجماهير التى عرفت « طلعت » ، أو استمعت إلى أحاديثه وخطبه ، أو وقفت على آثاره وأعماله وتصرفاته ، إلى بنك مصر وشركاته ، وما يتصل بها من خطط ، وما تعرضت له من أزمات ؛ وكان من الطبيعى أيضاً أن يكون للفقيد — شأن كل عظيم وعصامى ومبرز — الأصدقاء والحساد والأعداء ... والخصومة للعظيم — وخاصة لمن بلغ منزلة « طلعت » — لا تنقص من مكانته ، بل لعلها تزيده منزلة ، وتُجلّى على الأيام فضائله وشمائله . ذلك أن النقد وحده هو الذى يستطيع أن يكشف عن اللؤلؤة الصحيحة من دفائن المعادن

لست أريد أن أتناول هنا ترجمة حياة الفقيد ، ولا أن أقوم ببحث فى شئون الشركات الوطنية ؛ وإنما حسبى أن أعرض لأشياء تحدث بها أناس منذ أعوام ثلاثة ، وكان من وراء هذه الأحاديث ذلك القانون الذى صدر فى العام الماضى بدعم بنك مصر وتقوية الروابط بينه وبين الحكومة

كانت هذه الأشياء من المسائل التى بالغ حساد « طلعت » وخصومه فى الخفض من مكانته ، والغض من شأوه ، وفاتهم بادئ ذى بدء ، أن « طلعت » كان رجلاً ، وكان مجرباً ، وكان بادئاً ، وكان بشراً ، وكان يعمل فى بيئة لم تُتعهد من قبل ... كل هذا قمين أن يدعو إلى شىء من الخطأ والتراخى والتشاؤم . ولقد كنت أشفق من هذه الأشياء ، وكنت أخشى أن تعدو من جرائها العوادى على البلاد والمشروعات الوطنية

غير أننى بعد أن هدأت العاصفة ، وقضى « طلعت » ، راجعت نفسى ، وشئت أن أكون فى منزلة القاضى ، يفصل بالحق ، ويورد فى حيثيات حكمه الأسباب التى يتألف منها اعتقاده ، والمقدمات التى انتهت إلى رأيه

أراد « طلعت » — حين فكر وحين مضى يحقق ما فكر فيه — أن يستعين فى مشروعه بالعناصر التالية :

١ — « الأعيان » : للافادة من أموالهم فى الاكتتاب برأس المال ، ثم يجذبهم إلى نقل مودعاتهم من البنوك الأجنبية إلى البنك الوليد

٢ — « الحكومة » : بوزاراتها ووزرائها وكبار موظفيها . لكى تكون يداً مع المشروع وما تفرع عنه من الشركات ، وذلك بأن تودع أموالها البنك ، وبأن توصى بتفضيل منتجات شركاته وما إلى ذلك من مزايا

٣ — « الصحافة » : للدعوة والدعاية والتخفف من المهاجمة أو النقد ، إذ أن المشروع جديد ومالى يتأثر بالنقد السريع

٤ — بالجمهور — عامة ، وخاصة — الطلبة والشباب :

فإذا كان قد حدثت أشياء غير صالحة ، فإن منجم ذلك هو العيوب التى نشهدها فى تصرفات الأعيان والحكومات والمصالح الأميرية وبعض الصحافة والجمهور . ذلك أن كل عنصر من هذه العناصر ، حسب أن له حقاً على طلعت أو على البنك ، بأن يترخص وأن يتسامح فيما لا يجوز الترخص والتسامح فيه . فإذا وقف طلعت موقف الحزم ، غضب طلاب المنفعة ؛ وإذا تسامح — وهذا ما كان يؤثر طلعت دفعاً للكيد — استتبع هذا ألواناً أخرى من التسامح ، بالاستزادة من الأقراض والتراخى فى الأداء . والرجل يريد أن يرضى جميع الحكومات خشية أن يقال إنه حزبى ، على حين أن مشروعاته مستقلة وواجب أن تكون مستقلة عن الأحزاب السياسية والتجارية والشخصية .

وعندى أنه إذا شئنا أن نتقى ما حدث من الأزمات والأخطاء ، أن نمضى قدماً فى علاج شئوننا ، فنعرف أين يبدأ حقنا وأين ينتهى عند حق غيرنا من بنك أو شركة أو مساهمة أو مصلحة عامة . علينا أن نفرق بين منافعنا الخاصة وبين المصالح العامة . بل علينا أن نعرف كيف نضحى منافعنا الخاصة لنصالح شئوننا العامة . فالمجاملة والتسامح (سياسة معلهش) والتراخى والاستغلال الحقير للنفوذ هذا كله مرجع العيوب فى مشروعاتنا ومساهماتنا وشركاتنا . فإن أصلحنا ، صلحت أداتنا المالية والاقتصادية ، وأدركنا أن الداء فينا وعلاجه بين ظهرانينا ، وأنصفنا الموتى من الأحياء

عبد الله حسين

نحن في صراع دائم

للأستاذ حسين الظريفي

كان يعتقد فى العقل أنه ليس إلا ما تمليه علينا تجارب الحياة ؛ فالطفل يولد ولا عقل له ، حتى يأخذ عن الوسط ما هو فيه ، ويظل رهين شروط حياته الخاصة والعامة بلا حد ولا أمد ، ومن شب عن الطوق وتفرد عن المجموع فقد أوتى حظاً كبيراً

تلك كانت نظرة العلم إلى العقل من حيث يظهر ومن حيث يتطور . غير أن فقهاً تمخضت عنه بداية القرن الحديث ، نظر إلى هذا العقل الذى يولد بعد الولادة ويظل محدوداً فى نموه وسموه بين المهد واللحد ؛ فأحاط به ثم تجاوزه إلى ما وراءه فأيقن أن هناك عقلاً باطناً يكمن وراء عقلنا الظاهر أورثتنا إياه قرون تتصل بأول الخليقة ؛ فهو ميراث ماضينا من حيث يبدأ إلى حيث يتصل به حاضرنا الذى نحن فيه ، ولا تزيده الأحقاب إلا شدًّا ومدًّا

وقد أسفرت بحوث العلم عن إثبات ما لهذا العقل الكامن من الأثر البالغ ، فى تلوين النزعة والفكرة والإرادة واقتيادها إلى حيث يريد ، على غير شعور منا بما نفعل وما لا نفعل

إن موضع القوة فى هذا العقل قائم وراء ما له من مظهر الخفاء ؛ ففى غفلة عما نعيه ونسترعيه من شئون عقلنا الشاعر ، يقوم العقل الباطن بعمليات التفاعل حتى تنبعث من أعماقه كلمته الآمرة أو الزاجرة فتدين لها الجوارح . ونحن لا نعى ما يدبر ويقرر إلا ذلك الأثر الذى نقوم به ، غير شاعرين بالبواعث

إن قوة العقل الباطن آتية مما يبطن فى فعله وانفعاله ، فى ذات نفسه وفيما وراءه من عقل واع تحيط به الظروف والوقائع . فالرغبة فيه خفية يضغط عليها ما تواضع عليه الناس من عرف وتقليد . والحركة فيه قائمة دائمة ولكنها فى قعر غير قريب ؛ وما أقول باستحالة الوصول إلى قاعه البعيد . ولكن دون ذلك أهوال

هنالك حيث لا يصل سمع ولا بصر ، إلا ما ندر ، تزدحم الرغائب وتتصادم ، ويعلو بعضها على بعض درجات وطبقات ، وكل رغبة منها تريد بلوغ القمة والخروج من الزاوية إلى النافذة ، لتلقى النور ، وتعرب عن نفسها بأعمال الجوارح ؛ ولكنها لا تكاد تصل السلم حتى تجد عليه رقيباً عتيداً يدفع بها إلى الحضيض . وهكذا تبقى الرغائب حية فى القبر تتنازع وتتصارع والرقيب يأبى عليها إلا أن تنحدر إلى ما وراء مجرى الشعور ، مهما استحر هناك القتل وطال عليه الأمد . وما ذلك الرقيب إلا الضمير

فالرغبة الجامحة تصدم بقوة الضمير ، فيضغط عليها حتى تنحدر إلى قاع النفس وتستقر فيه ، غير قانطة من بلوغ منطقة الوعى من العقل وفرض نفسها عليه ، وتحريك الجوارح به وفق ما تريد .

وما دامت الرغائب محجوراً عليها فى قرارة النفس ، فإنها تبقى فى نزاع لا يهدأ ، تستنفد فيه ما هى بحاجة إليه مما نملك من طاقة . ونحن إن لم نشعر بجلية هذا الصراع فى داخل النفس فإن تأثرنا به ولا ريب كبير . وقد تبلغ شدة التنازع بين الرغائب إلى حد تبتلع فيه كل نشاطنا ، حتى نظهر وكأنا لا نملك شيئاً من قوة الاندفاع إلى العمل وتحتلنا مظاهر التردد والخمول .

إن الرغبة المقموعة تريد حرية التصرف فيأبى عليها العرف الاجتماعى إلا أن تقهر ، حتى إذا كثرت الرغائب المقهورة واستطال عليها الزمن بلغ التنازع فيما بينها ذروته وأصبحنا ونحن من أنفسنا فى ساحة حرب تضيع فيها الجهود سدى . ذلك لأن من طبيعة الرغبة أن تمتلك حرية الاستمتاع بالإرادة ، فإذا هى قهرت وانحدرت إلى ما وراء الشعور ، اتخذت لنفسها هناك موقفاً عدائياً لكل رغبة فيه ، تليدة أو جديدة ؛ حتى إذا ازدادت الرغائب وتمادت على ما هى فيه من تكالب على الظهور ، نشأ عندنا ما يعبر عنه بالقلق الداخلى أو النفسى ، ونحن فى مثل هذه الحالة لا نشعر إلا بذلك الشعور الغامض العميق الذى تسودنا فيه بلبلة الفكر فلا نعرف ما ينبغى أن يدرك أو يترك . وبهذه الحرب الدائرة بين مختلف الرغائب نستهلك الكثير مما نملك من طاقة عصبية وذهنية ، فيبدو احتياجنا إلى مثل هذه الطاقة فى أعمال وعينا الأخرى ، ونظهر وكأنا عاجزون .

كتاب الامتاع والمؤانسة

حول نقد الأب أنستاس الكرملي

للأستاذ محمود البشبيشي

قرأت ما كتبه العلامة الأب أنستاس فى « الرسالة » الغراء ناقداً طبعة كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ، وقد دفعنى حب الإنصاف والغيرة على الحق والرغبة فى تمحيص المسائل اللغوية إلى كتابة هـذه الكلمات مخالفاً فيها الأب أنستاس فى بعض ما أورده من النقدات ؛ ويقينى أنه لا يضيق صدراً بها ، فهو من رجال البحث الذين لا يبغون من وراء بحثهم إلا الحقيقة وحدها :

١ — رسم الحروف :

خطَّأ الأب أنستاس كتابة (رءوسا . يبدءوا . مشئوم) بصورتها الحاضرة ، ورأى أن الصواب أن تكتب هكذا : (رؤوساً — يبدأوا — مشؤوم) والقاعدة المأثورة تنص على أن (كل همزة بعدها حرف مدّ من جنس حركتها ترسم مفردة كما فى (رءوس ويبدءوا) أو على نبرة إذا لم يمكن فصل ما بعدها عما قبلها كما فى (مشئوم) . وهذا ثابت فى كتب الإملاء (رسم الحروف) ، وقد يكون فيها رأى آخر ، ولكن صحة رسمها على الصورة التى خطأها أمر لا شك فيه

٢ — اللغة :

خطَّأ قولهم (نعم وكرامة) ورأى أن الصواب أن يقال : (حباً وكرامة) والعبارتان صحيحتان ، ولكن الجهة منفكة كما يقولون ؛ فقد ورد فى المحيط (أفعل هـذا وكرامةً لك) ، وفى الأساس كذلك على معنى (وأ كرمك إكراماً) فالكرامة هنا مصدر ، وفى قولهم (حباً وكرامة) اسم ذات ؛ فكل منهما فى موضعها صحيحة

٣ — الصرف :

خطَّأ (السَّكَن) بفتح الكاف ورأى أن الصواب الكسر مع أن القياس الفتح والمحيط والمصباح ينصان على جواز الفتح

إن مجهودنا العصبى محدود بقدر ، فإذا نحن لم نحسن التصرف فيه ونضعه فى موضعه الذى يجدى ظهر عجزنا عما خلقنا قادرين عليه . وما استنفاد هذا المجهود فى صراع الرغائب إلا كذلك الجيش الذى اقتتل أفراده قبـل منازلة العدو فأبيد بأيديه ، والفارق هنا أن قتال الرغائب لا يزول ولا يفتر وإنما تزيده الأيام حدة وشدة ، ويختلف مصير المصاب به باختلاف قوة احتماله لهذا العبء الثقيل .

والرغبة لا تقتل مهما استطال زمن جهادها وجلادها فى سبيل استعلائها على أخواتها من الرغائب ، ولا يدركها الفناء مهما امتد بها عهد المكوث فى باطن النفس ، حيث لا يصل وعى ولا شعور ، وإنما تبقى فى القاع تفعل فيما فيه وتنفعل به ، حتى تنفجر من النفس فتثور وتظهر بأعراض قد تصل إلى حد الجنون ، أو تحتال على الوعى ، بالرمز تارة وبالمظهر مرة أخرى ، وتخدعه عن نفسه وتظهر فيه

كل أولئك يفصح لنا عن مدى صراعنا ، ويبعث فينا الرغبة فى الوقوف على تطورات هذا الصراع وما يستخدم فيه من معدات النزال والقتال ، ويود كل امرئ لو يعجل ببدأ المعركة الفاصلة ، وانتصار التفريج فيها على القمع والإرهاب

ونشير إلى أن لنا من صراع الرغائب فى عقلنا الواعى مثالاً متناهياً فى الصغر قد يفصح — ولو من طرف خفى — عن هول المعارك التى تدور فى منطقة العقل غير الواعى ، وتلقى خافت النور على ما لها من مركز ثقل دائم فيما ندرك وما نترك . وفى الواقع أن الرغائب المتناقضة لا يندر وجودها فى ساحة العقل الشاعر ، فقد تتنازعنا الرغبة فى الراحة وفى الاستمرار على المطالعة ، ونقف لحظة قد تطول وقد تقصر بين هاتين الرغبتين حتى تتغلب الواحدة على الأخرى فنجيب تلك دون هذه ؛ غير أن الشأن فى صراع العقل الباطن يصل إلى مدى يضيق عن تصوره خيال الشاعر العبقرى ؛ ونحن بعد ذلك لا ندرى من أمره شيئاً إلا من أوتى حظاً غير قليل من علم النفس الحديث

حسين الظريفي

والكسر معاً . وخطَّأ ضبط الدال الأولى من (جُددٍ) جمع جديد بالفتح والقياس يساعده ولكن ورد فى المصباح ص ٩٥٩ الطبعة السادسة لسنة ١٩٢٥ بالمطبعة الأميرية بالقاهرة قوله : (بعض بنى تميم يخفف الجمع فى نحو سُرُر وذُلُل بفتح العين (الحرف الثانى) وَطَرَدَ بعض الأئمة ذلك فى الصفات فيقال : (ثياب جُدَد) . ولا أدعى أن الفتح كثير ، ولكنى أراه وجهاً أقره بعض الأئمة للتخفيف ونطق به من يوثق بعربيتهم فالتخطئة المطلقة هى محل الخلاف

٤ — الرواية

خطأ رواية بعض أبيات لأعشى باهلة فى رثاء أخيه المنتشر فقال ما معناه : الصواب أن يقال : (أحوى نوءها المطر) بدل (أخطا نوءها المطر) وأن يقال : (لا يضعف الأمر) بدل (لا يصعب الأمر ...) ولتمام الإيضاح نورد البيتين كما أوردهما الشيخ حمزة فتح الله فى المواهب الفتحية (الجزء الثانى) ونصهما :

ينعى امرأً لا تغب الحىَّ جفنته
إذا الكواكب أخطا نوءها المطر

لا يُصعِب الأمرَ إلا ريث يركبه
وكل أمر سوى الفحشاء يأتمر

وظاهر من سياق الكلام أن رواية المواهب صحيحة وقد أخذ بها الناشران وإن المعنى عليها لا غبار عليه ؛ وإذا فلا معنى لهذه التخطئة

٥ — النحو

لا يزال الأب أنستاس مصمما على وجوب جمع (أفعل وفعلاء) إذا كانا وصفين على (فُعْل) ولهذا خطأ قول الناشرين (حجارة ملساء) وأوجب أن يقال (حجارة مُلس) . ولنا أن نطلب إلى حضرته نشر خلاصة رأيه الذى أوده فى (مجلة المجمع العربى) ليمكن أن يبحث فى روية . ونحن مع تسليمنا بأن هاتين الصيغتين لم تردا فى الفصيح إلا مجموعتين على (فُعْل) نستطيع أن نحكم بجواز استعمال الوصف بهما مفرداً قياساً على قولهم : « إن الجمع بمعنى الجماعة فيجوز وصفه بالمفرد » ولذلك شواهد لا تحصى ، والأصل عدم المنع إلا بنص قاطع ؛ فهل عند الأب أنستاس ذلك النص ؟

إنى لأذكر ما دار بينه وبين الدكتور زكى مبارك حول هذا الموضوع فى مجلة (أبولو) وأعلم رأى الأستاذ الجليل الشيخ عبد القادر المغربى فى تخريج عبارة أبى العباس التى وردت فى (الكامل) وتمسك بها الأب أنستاس ، ولكنى أرجو أن نزيد الرأى إيضاحاً ، والحقيقة بنت البحث .

وخطأ الأب أنستاس هذه العبارة من الاستقصاءات الأربع جارياً على أن (الاستقصى) مذكر فيجب تأنيث العدد بالتاء خضوعاً للقاعدة المشهورة (تذكير العدد مع المؤنث وتأنيثه مع المذكر) . وهنا أكتفى بإيراد نص عبارة توارد عليها (الصبان والخضرى) فى باب العدد وهى :

(محل وجوب هذه القاعدة إذا ذكر المعدود بعد اسم العدد ، فلو قُدِّم وجعل اسم العدد صفةً له جاز إجراؤها وتركها كما لو حذف . تقول مسائل تسع ورجال تسعة وبالعكس كما نقله النووى عن النحاة) ، ثم يقول الشيخان فاحفظها فإنها عزيزة النقل

وبعد فإنى من المقرين للأب أنستاس بسعة العلم وغزارة الفضل .

(المنصورة) **محمود البشبيشى**

عـــدنا . . . والتقينـــا

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

التقينا !
والتقينا
عجباً كيف صحونا ذات يوم فالتقينا
بعد ما فرّق قطران وجيشان يدينا !
فتصالحنا بجسمينا وعـــدنا فالتقينا

* * *

بعد عصر
أيّ عصر
والنوى تجرى وسر الحب فى الأكوان يجرى
ثم نادانا تعالوا فاهبطوها أرض مصر
قُضى الأمر كما شاء ، فعدنا والتقينا

* * *

كم بكيتِ ؟
واشتكيتِ
ثم ألهمتِ على الغيب فأصغينا وقلتِ :
قلت فى السابع والعاشر من شهر سيأتى
ها هنا سوف ترانى ، فرأينا والتقينا !

* * *

يوم ذكرى
هو أحرى
بالتقاء كلما دار به الحول وأسرى
فى سماء تبهر الشعرى وتدنى كل شعرى
كيف يلقانا وحيدين غد فيه التقينا

* * *

قبل عام
ثم عام
كان يومٌ ، أىُّ يوم ، فى صفاء وابتسام
يوم لاقى الحبُّ لحظينا على عهد الدوام
فتعاهدنا وقلنا : كلمـــا عاد التقينا

* * *

وتدانى ...
وكلانا
زائغ الطرف يناجى الأفق قلباً ولسانا
ثم ماذا ؟ ثم كنْ يا بُعْدُ لى قرباً ، فكانا !
واستعان الحب بالداء حليفاً ، فالتقينا

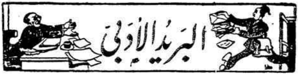
* * *

كم غرام
وسـقام
عرفا الحلف على غير سـلام ووئام
فإذا ما اجتمعا فانتزعانى من مقامى
فبحسبى منهما أنّا شكونا فالتقينا

* * *

يا فتاتى
يا حياتى
لا تُراعى بعد هذا من فراق أو فوات
قدّر الله كفيلٌ لك فى ماض وآت
كلما فرّق شملينا دعانا فالتقينا ... !

عباس محمود العقاد



الأب أنستاس ماري الكرملي في عيد ميلاده

احتفل الشيخ الجليل الأب أنستاس ماري الكرملي في ٥ آب بعيد ميلاده السادس والسبعين، منزوياً في صومعته الهادئة، منصرفاً إلى العمل الذي وقف عليه حياته

إن سيرة الأب الكرملي مثال حي للفكرة التي تتسلط على ذهن الإنسان فتعلق بشغاف قلبه، وتغدو جزءاً من أجزاء نفسه؛ وأية فكرة هذه التي ملكت لب الأب وهيمنت على جوارحه منذ حداثة عهده؟

هي اللغة العربية، وأكبر بها فكرةً ينزع إليها العقل، وتروى عنها النفس، تراءت له وهو فتى لم يكد يبلغ أشده، فبهره منها الحسن والسناء، وقطع لها راضياً عهد المودة والوفاء. وها هو ذا بعد ستين سنة أو تزيد لا يزال وفياً بالعهد، متحمساً للغة الضاد حماسة الشباب الفوار، مخلصاً لها إخلاص الشيخوخة المحنكة الحكيمة

كانت اللغة العربية مذ وجدت — ولن تزال — وسيلة للخطاب والتفاهم، تحمل الأفكار من ذهن إلى ذهن، وتنقل الأخبار من جيل إلى جيل، حتى قربت بين الناس، ووصلت بين الأزمنة الغابرة والحاضرة. وإذ أصبحت بعد تهذيب أطرافها وتنميق أسبابها أداة الآداب الرفيعة، لم تخرج عن كونها وسيلة لا غناء فيها إلا بما اتخذت له من غاية الإفصاح والتبيان. لكن لكلماتها وتراكيبها — مع ذلك — جرساً في الأذن، ورسماً على القرطاس حبباها أحياناً إلى النفوس، وقرباها من الأذهان بصرف النظر عن مدلولها ومؤداها

ولقد أشار إلى ذلك أناتول فرانس في كتابه: «الحياة الأدبية» عند الكلام على معجم جديد ظهر في اللغة الفرنسية، فقال إن بودلير كان يقرأ معجمات اللغة ويبتهج بقراءتها، وأن تئوفيل غوتييه كان مولعاً بالكلمات يحبها حباً جماً، وأن جوزه ماريادي هريديا كان يجهر بأن مطالعة المعجم تستثيره وتدخل على نفسه من اللذة والسرور ما لا تدخله قراءة رواية «الفرسان الثلاثة». وأضاف أناتول فرانس قائلاً بأسلوبه الساحر: «أما أنا فلا أجد عادة للكلمات معنى يفوق المعنى الذي تجعله لها المصطلحات، فقد كنت في أغلب الأوقات أهيم في معاجم كبيرة كأنها الرياض الملتفة. وسبب ذلك أني أرى أن الألفاظ إنما هي صور، وما المعجم اللغوي سوى عالم قد رتب بحسب ترتيب حروف الهجاء. وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة صادقة فإننا نجد أن معجم اللغة إنما هو الكتاب الذي لا يفوقه كتاب، فإنه يشتمل على التصانيف بأجمعها، فما عليك إلا أن تستدرجها منه ... وإني لأشعر في قلبي بحنوٍّ عظيم إزاء كل كلمات اللغة. إني أشعر برأفة كبيرة أمام طائفة التعابير البسيطة والفخمة. إني أحبها كلها، فهي تستميلني وتستفزني، وإني لأمس الكتاب الذي يضمها مساً شديداً ينم على مبلغ تأثري وارتياحي»

غير أن هذه الوسيلة التي يستعملها الناس في خطابهم، ويستعين بها الأدباء في أداء رسالتهم، قد أصبحت غاية في حد ذاتها للعلماء الذين انقطعوا إلى دراستها، ووقفوا حياتهم على استجلاء غوامضها.

فلا عجب أن نهج لغوينا العربي نهج من سبقه من علماء اللغة الأعلام، من أبي منصور الأزهري صاحب التهذيب، وأبي نصر الجوهري صاحب الصحاح، ومجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس، إلى البستاني، والشدياق، والشرتوني، وسواهم من المحدثين، وأن ترسم خطى من سلف من أئمة التدقيق والتحقيق من أمثال جونسن ووبستر، وأميل لِتره، فاتخذ من اللغة غاية ما بعدها غاية، يكب على نقد مفرداتها نقد الصيرفي

وما أشبه لغوينا من بعض الوجوه بزميله الإنكليزي صموئيل جونسن الذي سبقه بنيف وخمسين ومائة سنة! فغيرة الأب على اللغة العربية تشبه غيرة جونسن على لغته الإنكليزية، وأسلوب الأب المتين اللاذع يعدل أسلوب جونسن (وإن يكن هذا الإنكليزي الصميم لم يرض قط أن ينزل إلى ميدان المساجلات والمناظرات بالرغم عن الحملات التي كثيراً ما حملت عليه ـ) ومجلس الأب شبيه بالمنتدى الأدبي الذي أنشأه الدكتور جونسن

وصحبه وحضره مؤرخه «بوزول» ، فسجل مباحثاته ومداولاته .

ومقام لغوينا العراق بين أقطاب العربية معروف مرموق ، وجهاده فى سبيل الفصحى مرئىّ مسموع ، ورأيه فى التمسك بأهدابها مقبول متبوع . ولنا عليه أن يكلل مساعيه الموفقة فى خدمة اللغة الشريفة بإخراج معجمه الكبير الذى وسمه « بالمساعد » ، فيتفرغ لإنجازه وتنقيحه وتبييضه ، فهو عصارة سعيه وخلاصة جهده .

(بغداد) **مير بصرى**

« سعد زغلول من أقضيته »(*)

لم يكن الأستاذ عبده حسن الزيات ينتظر أن أكتب كلمة عن كتابه الجديد « سعد زغلول من أقضيته » ، لأنه يعرف أنى فرطت فى التنويه بمؤلفاته وأبحاثه التى ظهرت من قبل ، وإن كان يعرف مع ذلك أن ثقتى بفضله وكفايته لا تحتاج إلى دليل

الكتاب يُعرَف من عنوانه ، كما يقال ، وعنوان هذا الكتاب غاية فى الدقة والتحديد ؛ ومن غريب ما وقع لهذا العنوان أن الخطاط الذى كتبه — وهو حسنى — قد استطاع أن يبرزه فى أبهى حلة من حلل الجمال ، مع أنه يقع فى أربع كلمات يصعب الربط بينهما برباط الانسجام والاتساق ؛ وما أذكر أنى رأيت الكتاب معروضاً فى أية مكتبة ، إلا وقفت أمتع ذوقى بخط العنوان . فإلى « حسنى » الخطاط تحية خالصة لا يشوبها غير الحرص على إعزاز الفن الجميل

ثم أتحدث عن الكتاب بإيجاز ، فأذكر أنه من أقوى الشواهد على حصافة المؤلف ، وعلى مبلغ فهمه للدراسات الجدية ، وعلى أنه جدير بثقة الذين كرّموه عند ظهور هذا الكتاب النفيس

وأذكر أيضاً أننى ما تحدثت عن الأستاذ عبده حسن الزيات إلا وصفته بصدق الوطنية ، فهو عندى من الشبان النوادر الذين يفهمون الوطنية على وجهها السليم ، وقد جاء كتابه تأييداً لهذا الوصف : فهو خدمة صادقة لمصر ، ممثلة فى إبراز جوانب من الفقه والعدل عند أفراد من رجال القضاء ، على رأسهم « سعد » ،

(*) كتاب فى ٤٠٠ صفحة بالقطع المتوسط ، وفى الورق المعروف عن « مطبعة الرسالة »

وهذه الخدمة تؤكد ما أشرنا إليه غير مرة من أن رجال القانون فى مصر جعلوا لمصر المقام الأول بين الأمم الإسلامية فى شرح القوانين باللغة العربية ؛ ولو أن الأقدار كانت بخلت بأن يظفر « سعد زغلول » بذلك المجد الضخم ، المجد الوطنى والسياسى ، ثم جاء كتاب الزيات يحدد نفسيته وعقليته من أقضيته ، لكان كافياً فى جعل « سعد » من أعاظم الرجال

هذا الكتاب جيد جداً ، فليس من الإسراف أن نرجو عميد كلية الحقوق أن يؤلف لجنة تنظر فيه ، تمهيداً لمنح المؤلف درجة جامعية ، وإغراء لأمثاله من الشبان بالتعمق والاستقصاء

وإذا كانت « ذكرى سعد » هى التى حدت المؤلف فى بعض السنين الماضية على التفكير فى موضوع كتابه الجليل ، فأنا أرجو أن تكون كلمتى عن كتابه فناً من الاحتفال بذكرى « سعد » ، سعد القاضى على أعدل ما تكون فكرة القضاء

فإن لم يكن بدٌّ من النص على السرّ فى التوفيق الذى يحالف الأستاذ عبده حسن الزيات ، فأنا أرجح أنه يرجع إلى البر بالوالدين ، كتب الله له دوام التوفيق ... والسلام

زكى مبارك

تصحيح

نشرت « الرسالة » فى العدد (٤٧٥) كلمة للأستاذ الفاضل حسين الطريفى عن بيت حافظ :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى فى حب مصر كثيرة العشاق

جاء فيها « على أن فى البيت غلطة نحوية باستعمال لفظة (كثيرة) فهى إن نصبت على الحالية لم يستقم المعنى ، لأن كثرة عشاق مصر لا يكون حالاً من المكابدة ، وإن جرت على الصفة احتاجت إلى التحلية بأل المعرفة ، وبذلك ينكسر الوزن ، وعليه يكون من الضرورة استبدال لفظة (الجمة) بلفظة (كثيرة) ليستقيم الوزن والمعنى معاً » ا . هـ

أقول : وهذه غفلة عجيبة فإن (كثيرة) تصلح أن تكون حالاً وأن تكون صفة ، فإذا كانت حالاً فهى حال من مصر ، والعامل فيها ليس يكابد كما توهم الكاتب ؛ بل هو لفظ (حب)

المضاف ؛ والمعنى يكابد المشاق فى حب مصر خال كونها كثيرة العشاق أى حبهم لها فى هذه الحال

وعلى أنها صفة تجرى على الرأى القائل إن إضافة الصفة المشبهة محضة أى إضافة معرفة ، وعلى ذلك فكثيرة معرفة

على محمد حسن

فى الشعر التمثيلى

كتب الأستاذ البشبيشى فى العدد ٤٧٣ من الرسالة يقول : (فقد رأيت أن الشاعر البدوى الجليل عبد المطلب كان قد عالج الرواية الشعرية علاجاً استكمل شرائط الفن واستوفى أوصاف الحيوية التى طالعتنا من فنون أمير الشعراء ... فقد ألف عبد المطلب عدة روايات شعرية تمثيلية ... وبذلك ينفرد وحده بفضل السبق فى هذه الناحية الخطيرة من الفن الأدبى ، فقد افترع هذا اللون من الشعر الروائى افتراعاً) وكل ذلك لم يكن ؛ فعبد المطلب وإن عالج الشعر التمثيلى ومشى فيه خطوات لا تحمد ولا تذم ، لم يكن السابق ولا المفترع ، وإن كان له فضل الاستجابة السريعة لتلك الموجة الجديدة بين شطآن أدبنا العربى الحديث ؛ وإنما السابق إلى ذلك ، الشاعر خليل اليازجى كما يحدثنا أستاذنا المرحوم محمود مصطفى فى الجزء الثالث من أدبه العربى حيث يقول ص ٤١٣ (وعلى ذكر روايات شوقى التمثيلية نذكر أن أول من حاول جعل الرواية العربية كلها شعراً هو المرحوم الشيخ خليل اليازجى فى رواية « المروءة والوفاء » وقد مثلت فى الشام ، ويذكر المرحوم جورجى زيدان أنه شاهدها فى بيروت ١٨٧٨ م) ولا شك أن حادثة كهذه بلقاء فى الأدب قد وصلت إلى سمع الشيخ عبد المطلب ، وعلى فرض أنها لم تصل إلى سمعه فقد ملأ الشعر التمثيلى فى القرن التاسع عشر أرجاء أوربا ، هذه واحدة ؛ أما الثانية فعبد المطلب على فضله لم يستكمل شرائط الحيوية التى طالعتنا من فنون أمير الشعراء : فهذا القول أقرب إلى الغلو منه إلى أى شىء آخر ؛ فشعر عبد المطلب فى هذا الباب لا يصح أن يذكر بجانب شوقى وفحولته . فهما وإن اشتركا فى الجنس فقد اختلفا فى النوع أيما اختلاف ، وإنك لن تستطيع أن تتم قراءة تمثيلية لعبد المطلب إلا بعد حمل على النفس وإعنات لها وإجهاد . حاشا شوقى فإنه يطير بك فلا تشعر أن لعقلك أو لقلبك منازعة معه ، وإنما هى الفحولة الشعرية تفرض عليك أن تطير معها حيثما تطير

عبد الرحمن عيسى

خريج كلية اللغة العربية

من نوادر الخواطر

كتب « قاف » فى العدد ١٨٨ من الثقافة تحت عنوان « شخصية العامل وعمله » ما يلى :

تعودنا منذ قريب أن نقول كلما عرضنا للحديث عن شخص من رجالنا العاملين ، وحاولنا الموازنة بين عمله وبعض شئونه الخاصة — تعودنا أن نقول معتذرين من بعض سلوكه : « هذه مسائل شخصية »

وهو يضرب لذلك الأمثلة ثم يقول : « مستحيل أن يكون الرجل رجلين : رجلاً فى الشارع والبيت ، ورجلاً فى الديوان . إن الرجل الذى هنا هو الرجل الذى هناك وإن اختلف الزى والشارة » .

فهل يعلم « قاف » أن هذه الفكرة ذاتها قد وردت فى مقال الأستاذ عبد المنعم خلاف تحت عنوان « مقتول يبكى على قاتله » فى العدد ٣٧١ من « الرسالة » الصادر فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٠ حيث قال الأستاذ :

إن هذا التفريق بين السلوك السياسى والسلوك الروحى قد صار أمره عجباً من أعاجيب الحياة الأوربية ! وقد بات خطراً على الحياة الإنسانية الشخصية ، لأنه تسرب إلى موازين الحكم على الأفراد ، فهم يحترمون الذكى ويقدرونه ولو كان شيطاناً شريراً مفسداً ويقولون هناك حياة خاصة يحل للانسان فيها ما يحرم عليه فى الحياة العامة حتى تعددت الشخصيات . ثم يقول بعد ذلك : هذا كذب وتدليس على الطبيعة كما أرادها الله فاحذروه ، « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » إلى آخر المقالة

فهل يرى « قاف » أن هذا من توافق الخاطر ؟

أحمد جدامه

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)